المبحث الثانى

القرآن والشرائع الأخرى

قال تعالى ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ (آل عمران ٨٥). وورد فى القرآن لفظ الإسلام فى قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ (المائدة ٣). وورد لفظ المسلمين والمؤمنين، وتكررت الإشارات الي الأنبياء جميعا بأنهم "مسلمون" ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ ولكن خطاب الله لعباده لم يكن للمسلمين وإنما كان للمؤمنين. وميز القرآن بين الإسلام والإيمان ﴿**قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ**﴾ " ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ**﴾. كما لاحظنا أن القرآن استخدم لفظ المسيح إشارة إلى عيسي بن مريم واستخدم لفظ النصرانية إشارة إلى اتباع عيسى ولكنه استخدم لفظ اليهودية و(النصرانية) ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا**﴾ واستخدم "اليهود" ولم يستخدم اليهودية ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ**﴾. ولكن القرآن أورد الكتب السماوية الثلاثة مرتبة ترتيبا تاريخيا في موضعين علي الأقل مثل قوله تعالي ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ**﴾ ، ولم يقل فى اليهودية والمسيحية والإسلام.

نخلص من هذه الإشارات إلى الملاحظات الآتية:

أولا: أن المسلم هو الذى يؤمن بكل رسالات السماء، ولذلك وبهذا المعنى كان الأنبياء جميعا مسلمين، بدءا من آدم ، ونزلوا برسالة واحدة أعقبتها

رسالات وحتى الأنبياء كانوا رسل الله إلى الناس برسالة جوهرها وحدانية الله والبعث والحساب.

ثانيا: المسلم هو آخر أتباع الرسل وهم أتباع محمد لأنهم يؤمنون بجميع الرسل والرسالات السابقة. وقد كرم الله محمدا بأن حمله بمجمل الرسالات وبآخر كتاب شامل لما قبله وهو القرآن الكريم، ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**﴾ وتكفل بحفظه من كل ما ينال من مصداقيته وروايته وإخباره عن الرسل والرسالات والأقوام المختلفة.

ثالثاً: الدين عند الله هو مجمل هذه الرسالات وهو الإسلام ويستوى أن يكون مجمل الرسالات أو آخرها، لأن آخرها يؤمن بكل الرسالات السابقة عليه. وأما الكتب المقدسة فهى فى العقيدة حزمة ومرجعية لهذا الدين الواحد، ولذلك جاء القرآن نصا نهائيا وتبيانا لكل شئ ثم جاء محمد ﷺ لكى يرد على كل التساؤلات القديمة والمستجدة ولكى يجسد أحكام الدين الواحد فى كل الكتب، لأن محمدا والقرآن آخر اتصال بين السماء والأرض إلى يوم الدين. فتكون اليهودية شريعة وليست دينا، وتكون المسيحية شريعة أيضا، ولايصح أن نقول لكل منها دين، كما لا يجوز الحديث عن مقارنة الأديان، وإن صح مقارنة الأحكام والتكليفات فى الشرائع السابقة بما جاء فى القرآن فى نسخة الدين الختامية، فإنه لايصح مقارنة هذه الأحكام بالإسلام، لأن الإسلام هو هذه الشرائع مضافا إليها ما استجد فى عهد محمد ﷺ وما ارتضاه الله من تخفيف في العبادات وتوضيحا للتطرات وتصحيحا لما انحرف اليه أهل الكتاب قبل نزول القرآن من مثل الاشارة الي أن كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الاماحرم اسرائيل علي نفسه، فالقرآن هو كتاب الإسلام الجامع وليس اسلاما

جزئيا تصح مقارنته بغيره من الشرائع، ومن آمن بمحمد والقرآن، آمن بكل الشرائع السابقة ورسلها، فصار مسلما.

فهناك إذن فرق بين إسلام الأنبياء الذين يحملون رسالة الله الجامعة وينزلون بما تيسر منها على أقوامهم وجوهرها وجود الله الواحد الأحد رب الدنيا والآخرة والقدر والحساب، وبين إسلام الذى أدرك محمدا فآمن به ومن قبله. أما من آمن بموسى وعيسى ومات قبل محمد فقد مات على الجزء المخاطب به من هذا الدين وخاصة جوهره، ولذلك أطلق عليها الشرائع التوحيدية، وأما من وقف فى إيمانه عند موسى أو عيسى وأدرك محمدا فلم يؤمن ببقية الدين، فهم أهل الكتاب الذين حث الله محمدا على مراجعتهم وأول مسائل المراجعة ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ**﴾ وهذا هو جوهر الشرائع المكونة للإسلام بعد البعثة. فالأنبياء والرسل الذين فى فترات مختلفة قبل محمد كانوا يبشرون بمجمل الدين وهو محمد الإسلام وكانوا مأمورين فى كتبهم بالإيمان بمن يلى من الرسل.أما الأنبياء والرسل فقد أخذ الله عليهم ميثاقا ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ (آل عمران ٨١)

فالأصل أن الناس أمة واحدة والإنسان واحد ولما جاءهم النبيون اختلفوا، وصار أتباع الرسل ينزلون الرسالات فى إطار قواعد الصراع وهذا ماحدث بين اليهود وبنى إسرائيل وبين محمد على أساس أن كل شريعة تنطوى على سيادة بين الناس فى الدنيا علما بأن السيادة لكل من دخل فيها وليست حكرا على من نزلت على قومه، وكان ذلك ظاهرا عندما هاجر الرسول إلى المدينة المنورة ، حين ناصبه اليهود العداء والضغينة لأنه أحبط سيادتهم وتميزهم.

ويترتب على أن الإسلام هو جماع الشرائع السابقة مضافا إليها ما جاء فى القرآن مكملا ومعدلا، مع ثبات القواعد الأخلاقية النتائج الآتية:

النتيجة الأولى هى أن القرآن كتاب وكل من آمن بكل الرسالات والرسل فى القرآن مسلمون ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**ۚ﴾ (الحج ٧٨) ووضع القرآن قواعد التعامل بين هؤلاء المسلمين وبين من قنع برسالته ورسوله ووقف عنده ولم يعترف بمحمد، غير أن هؤلاء ينبغى عليهم إن كانوا يؤمنون بصلب رسالة موسى وعيسى أن يؤمنوا بالقرآن وبما أشارت إليه كتبهم الصحيحة لأن القرآن الجامع سوف ينزل على آخر نبى وهو محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأخبرنا القران أنه موجود في كتبهم قبل تحريفها وأنهم يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم.

النتيجة الثانية: مادام الدين بشرائعه وكتبه المختلفة قد اكتمل بالقرآن والسنة فهما باقيان إلى قيام الساعة، ومن يؤمن بالله دون أن يؤمن بمحمد فإنه حفظ جوهر الدين دون أن يكتمل إيمانه مادام كتابه على ما أخبرنا القرآن يحثه على الاعتراف بمحمد. ومعنى ذلك أن الإسلام رسالة خالدة وهى عالمية وليس هناك إضافة عليها ولكن على أتباعها مداومة إنزال ما جاء فيها على ما تكشف عنه الحوادث من مسائل وقضايا.

النتيجة الثالثة: هى أنه مادام القرآن لمن سبق ومن لحق فى جميع العصور وهو كلام الله وفرقانه وأحكامه إلى الناس إلى قيام الساعة، فقد ظل القرآن دون إرسال أنبياء مادام القرآن نزل على محمد وأتم الله نزوله قبل لحاقه بالرفيق الأعلى، ولكن الرسول ترك سنته إلى جانب القرآن مكملا ومفسرا وموضحا وشارحا ومفصلا، وكلاهما القرآن والسنة نبراس الناس إلى يوم الدين،

فمن أخذ بالقرآن وأغفل السنة فقد خرج من الملة ولاسبيل إلى الاجتهاد فى هذه الركائز الأساسية فى الدين.

النتيجة الرابعة: هى أنه مادامت السنة تجاور القرآن إلى يوم الدين، والأحكام الواردة فيهما هى قانون السماء للناس، فقد ترك تفسيرهما لحيوية العقول وإسهاماتها . والثابت أن الرسول لم يقدم تفسيرا مانعا للقرآن حتى لا يجمد النصوص القرآنية ويحبسها عند لحظة معينة، كما أن إضاءات الرسول لأحكام القرآن هدفها مساعدة العقول المتجددة خاصة فى مسائل المعاملات، أما مسائل العقائد فإن الاجتهاد فيها لابد أن يراعى الدقة فى النص القرآنى ومنطق السنة المتصلة بالمسألة محل الاجتهاد.

النتيجة الخامسة: هى أن الله أولى عناية خاصة بمحمد فى القرآن وحفل القرآن بمظاهر هذا الاهتمام ويكفى أن الله اختاره ليتمم موكب الرسل والأنبياء وليتمم مكارم الأخلاق وليكون القرآن هو معجزة محمد، وهو الكتاب الجامع والخاتم للرسالات والرسل.

وتحفل آيات الذكر بالإشارات المتصلة بمحمد فهو الرسول والنبي ومحمد (أشار أعداؤه تهكما إليه : يا أيها الذي نزل عليه الذكر). وخصصت له سورة محمد بسبب وضعه عند ربه، ولأن محمدا كان يطبق القرآن ومن ثم كان القرآن يتابع أحكامه ويصحح إن اجتهد قبل نزول الوحى، ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ**﴾ حيث صحح القرآن موقف الرسول من قضية الأسري.كما أن الرسول قاد المعارك ضد الكفار فى عدة غزوات وكان المسلمون حينذاك يطالبون الرسول بصدق ما وعدوا به فى أوقات الشدة. (عندما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا وسألوا الرسول متي وعد الله.)